



[www.mecs-j.com/ar](http://www.mecs-j.com/ar)

## من تجليات الهندسة المعمارية لمسجد قرطبة

د. ميمون الموساوي / كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب

[mi.mousaoui@gmail.com](mailto:mi.mousaoui@gmail.com)

## ملخص:

تكتسي الهندسة المعمارية لمسجد قرطبة الكبير أهمية محورية على صفحات تاريخ الأندلس (في شقه المتعلق بالعمارة الدينية) ، كما تعكس في الواقع جمالية ذات قيمة بارزة لا تخطئها العين. وحلقات بنیان هذا المعلم الديني امتدت على مراحل إلى ما يزيد عن قرنين من الزمان، يمكن حصر أهمها في أربعة أطوار رئيسية: الأولى ترجع إلى عبد الرحمان الداخل والثانية إلى عبد الرحمان الثاني والثالثة إلى الخليفة الحكم الثاني والأخيرة إلى الحاجب المنصور.

للوقوف عند أبرز تجليات الهندسة المعمارية لمسجد قرطبة، ارتأينا تسليط الضوء على مفاصل محددة من بنیان هذه المعلمة الدينية، والتي تعد بحق قطعة ثمينة من تاريخ الأندلس.

**الكلمات المفتاحية:** العمارة الدينية، تاريخ بنیان مسجد قرطبة، الهندسة المعمارية لمسجد قرطبة.

## Résumé :

L'architecture de la grande Mosquée de Cordoue revêt une importance cruciale dans les annales de l'histoire de l'Andalousie. En fait, cet édifice reflète une beauté d'une valeur évidente. L'histoire de construction de ce monument religieux s'étendait sur plus de deux siècles, cette période est divisée en quatre phases principales : la première revient à Abderrahmane I, la seconde à Abderrahmane II, la troisième au Califat al Hakam II et la dernière à al-Hājib al-Mansūr.

En s'arrêtant sur les aspects architecturaux les plus marqués de cette Mosquée, on a visé à mettre l'accent sur des articulations bien déterminées de la structure intérieure et extérieure de ce magnifique monument religieux.

**Mots-clés :** L'architecture religieuse, L'histoire de construction de la grande Mosquée de Cordoue, L'architecture de la grande Mosquée de Cordoue.

## مقدمة:

يعود بنا تاريخ مسجد قرطبة الجامع إلى جذور متأصلة في رحاب ذاكرة المكان، إلى حلقات مفصلية انطلقت بداياتها الأولى بعد الفتح الإسلامي للأندلس، حين شاطر مسلمو قرطبة النصارى كنيستهم التي كانت تعرف باسم كنيسة القديس بنسنت<sup>١</sup>. واستناداً إلى ما ذكره المقرئ في كتابه الشهير "فح الطيب"، حين استولى الأمير الداخل على إمارة قرطبة، فكر في توسيع مسجد قرطبة وضم الشطر الذي بقي بحوزة النصارى، ففاوضهم في الأمر وأوسع لهم البذل، فقبلوا على شرط أن يسمح لهم ببناء كنيستهم التي هدمت بخارج المدينة. وتم الاتفاق سنة ٧٨٥م.

وقد حظي هذا المعلم الديني على مر تاريخه الحافل برعاية موصولة من قبل أمراء وخلفاء بني أمية في الأندلس، ويتجلى ذلك من خلال الزيادات الهامة التي غطت على مراحل متفرقة ما يزيد عن قرنين من الزمان، منذ عهد الأمير الداخل إلى أيام الحاجب المنصور<sup>٢</sup>.

كما هو معلوم، ينقسم «تصميم» المسجد الجامع إلى قسمين (وإن كان هذا الصرح المعماري قد تم تشييده دون تخطيط مسبق أو مثال معماري ثابت): الأول عبارة عن صحن مكشوف (صحن البرتقال)، والقسم الثاني عبارة عن قاعة فسيحة (بيت الصلاة).

يحاول هذا العرض الموجز إلقاء الضوء على جوانب محددة من بنيان جامع قرطبة، بما يتيح الاقتراب أكثر من وحداته وعناصره البنائية والجمالية، والسفر عبر دروب المكان إلى محطات مشرقة من تاريخ هذه المعلمة الدينية في قلب مدينة قرطبة العريقة.

## ١-الواجهات الخارجية:

### ١.١-الجران والأبواب:

يتربع مسجد قرطبة الجامع فوق منحدر بسيط نازل إلى نهايته في اتجاه الجنوب، بعرض مائة وثلاثون متراً (من الشرق نحو الغرب)، وطول يبلغ مائة وثمانون متراً (من الشمال إلى الجنوب). ويبدو بنيان هذا الصرح المعماري كالحصن المنيع، وسوره الخارجي عبارة عن جدار مرتفع محصن على

١- وردت تسمية كنيسة «شنت بنجنت» أول مرة ضمن كتابات المقرئ، ومنها انتشرت وصارت متداولة ومشهورة.

٢- بعد وفاة الحكم المستنصر تولى السلطة الحاجب المنصور بن أبي عامر كوصي على الخليفة هشام بن الحكم.

امتداده بأبراج مربعة تضم بينها أبواب المسجد العديدة (ما عدا جدار القبلة)، متوج في أعلاه بنهايات مسننة، وسقفه مغطى بالقرميد على غرار المباني الإسبانية.

شيدت على مستوى واجهات الجامع (الغربية، الشمالية والشرقية) أبواب في مواقع محددة، ويبلغ مجموع أبواب الجامع الخارجية - استناداً إلى ما ذكره المقرئ في كتابه "نفح الطيب" - عشرون باباً، وفي موضع آخر يذكر (المقرئ) واحد وعشرون باباً، ضمن إفادة نقلها بدوره عن ابن سعيد عن ابن بشكوال، جاء فيها: «وعدد أبوابه الكبار والصغار واحد وعشرون باباً: في الجانب الغربي تسعة أبواب، منها واحد كبير للنساء يشرع إلى مقاصيرهن، وفي الجهة الشرقية تسعة أبواب، منها لدخول الرجال ثمانية أبواب، وفي الجهة الشمالية ثلاثة أبواب، منها لدخول الرجال بابان كبيران، وباب لدخول النساء إلى مقاصيرهن (...) وجميع هذه الأبواب ملبسة بالنحاس الأصفر بأغرب صنعة»<sup>٢</sup>.

يقع الباب الرئيسي للجامع على مستوى ضلعه الشمالي، والذي بات يُعرف اليوم باسم باب الغفران (الشكل ١)، يوازيه من الجهة المقابلة (من صحن البرتقال) باب النخيل (الشكل ٢).

٢٠١-المئذنة:

تذكر المصادر التاريخية أن أشغال توسيع مساحة مسجد قرطبة في عهد عبد الرحمان الداخل اقتصر في البداية على المرافق الأساسية والضرورية، لم يتسن آنذاك بناء مئذنة، لذلك اتخذ - مؤقتاً - من أحد أبراج القصر المجاور لمئذنة للمسجد من جهته الغربية.

لما تولى الحكم هشام بن عبد الرحمان الداخل جرى استكمال ما تبقى من مرافق أساسية بالمسجد، وقد أورد صاحب "البيان المغرب" تفاصيل مفيدة في هذا الصدد، جاء فيها: «...ثم زاد ابنه هشام صومعة كان ارتفاعها أربعين ذراعاً إلى موضع الأذان، وبنى بأخر المسجد سقائف لصلاة النساء، وأمر ببناء الميضأة بشرقي الجامع»<sup>٤</sup>.

بصد أعمال البناء التكميلية التي جرى تنفيذها في عهد هشام الأول، يذكر جوميث مورينو أنه «بعد وفاة عبد الرحمان الداخل، قام ابنه هشام باستكمال ما تبقى من أعمال البناء، حيث أقام المئذنة في منتصف

٣- المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٨٨م. ج١، ص ٥٥٠.

٤- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان، وإ. ليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧، ج٢، ص ٢٣٠.

الجدار الشمالي على محور المحراب وكانت مربعة الشكل، طول ضلعها ستة أمتار وارتفاعها عشرون متراً تقريباً<sup>٥</sup>.

وخلال مرحلة متقدمة، تحديداً في عهد عبد الرحمان الثالث (الملقب بالناصر)، وعلى إثر انطلاق أشغال توسيع صحن الجامع في اتجاه الشمال، اقتضت الضرورة هدم مئذنة الجامع القديمة وبناء أخرى بمواصفات وقياسات جديدة. وقد أورد صاحب كتاب "المسالك والممالك" في هذا الصدد ما يلي: «وارتفاع الصومعة اليوم – وهي من بناء عبد الرحمان بن محمد – ثلاثة وسبعون ذراعاً إلى أعلى القبة المفتحة التي يستدير فيها المؤذن، وفي رأس هذه القبة تفافيح ذهب وفضة، وارتفاعها إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعاً، وطول كل حائط من حيطانها على الأرض ثمان عشرة ذراعاً<sup>٦</sup>».

وقد تطرق المقري في الجزء الأول من كتابه "نفح الطيب" إلى تفاصيل تتعلق بمواصفات هذه المئذنة الجديدة، ضمن إفادة نقلها عن الرازي عن المؤرخ الأندلسي ابن بشكوال، ومما جاء فيها: «ثم ذكر (الرازي) الصومعة نقلاً عن ابن بشكوال فقال: (أمر الناصر عبد الرحمان بهدم الصومعة الأولى سنة ٣٤٠هـ، وأقام هذه الصومعة البديعة، فحفر في أساسها حتى بلغ الماء مدة من ثلاثة وأربعين يوماً، ولما كملت ركب الناصر إليها من مدينة الزهراء، وصعد في الصومعة من أحد درجيتها ونزل من الثاني، ثم خرج الناصر وصلى ركعتين في المقصورة وانصرف). قال (ابن بشكوال): (وكانت الأولى ذات مطلع واحد، فصير لهذه مطلعين فصل بينهما البناء، فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها<sup>٧</sup>). الجانب المميز في تصميم المئذنة الجديدة أنها ذات مطلعين، أي تتألف من جزأين مستقلين يفصلهما جدار مشترك.

## ٢-العناصر المعمارية الأساسية:

### ١.٢-الأعمدة:

لقد استخدمت في بناء مسجد عبد الرحمان الداخل أعمدة رومانية وقوطية جلبت من مباني سابقة، كانت أبعادها متساوية مع اختلاف في أسلوب نحتها، وكان ارتفاعها يصل إلى ٤,٢٠ متراً، وقد تم تثبيتها فوق قواعد ذات ارتفاعات متباينة، لذلك تم الاستغناء عنها أثناء التوسعة الثانية<sup>٨</sup>. وهكذا استخدمت على

٥- مانويل جوميث مورينو، الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع، السيد عبد العزيز سالم، القاهرة، الدار المصرية (د.ت)، ص ٤٨.

٦- البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندري فيري، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٢، ص ٩٠١.

٧- المقري، نفح الطيب، م. س، ج١، ص ٥٦٢.

٨- ليوبولدو توريس بلباس، تاريخ إسبانيا الإسلامية، من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، ترجمة علي عبد الرؤوف البمي، على إبراهيم المنوفي،

السيد عبد الظاهر عبد الله، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ج٢، ٢٠٠٢، ص٣٤-٣٥ (بتصرف)

نطاق واسع أعمدة<sup>٩</sup> رخامية أسطوانية الشكل على طول أروقة بيت الصلاة، وذلك لأسباب وظيفية وجمالية<sup>١٠</sup>.

من الواضح أن بنيان جامع قرطبة كان يضم - إلى حدود التوسعة الأخيرة - عدداً هاماً من الأعمدة الرخامية تجاوزت الألف عمود. وقد ذكر المقري في هذا الصدد ما يلي: «وكان عدد سواري الجامع الحاملة لسماؤه واللاصقة بمبانيه وقبابه ومناره بين كبيرة وصغيرة ألف سارية وأربعمائة سارية وسبع عشرة سارية، وقيل أكثر»<sup>١١</sup>.

لكن بعد استرداد مدينة قرطبة، جرى تحويل الجامع إلى كاتدرائية أطلق عليها اسم كنيسة سانتا ماريا العظمى، وأدخلت بعد ذلك تغييرات بنائية في وسط بيت الصلاة وفق طراز العمارة القوطية، تقلص على إثرها عدد أعمدة الجامع إلى حوالي تسعمائة عمود (الشكل ٣).

## ٢.٢- العقود (الحدوية المزدوجة، المدببة، المفصصة والمتقاطعة):

### ١.٢.٢-العقود الحدوية المزدوجة:

يبدو الشكل الهندسي للعقود الحدوية أقرب إلى الاستدارة منها إلى البيضاوية أو التدبب، مع زيادة طول القطعة مفتاح العقد وكذا القطع المجاورة لكتل المنبت، وقد شيدت هذه العقود (الحدوية المترابطة) فوق أعمدة رخامية أسطوانية الشكل، تعلوها تيجان بعضها ذات بروز ملساء، وأخرى كثيرة ذات زخارف ورقية نباتية بديعة الشكل، وكل عقد من العقود الحدوية المترابطة قوامه سبع قطع من الحجر المهدب الأبيض، وثمانية صفوف من الأجر الأحمر، تتناوب فيما بينها على وتيرة توحى بتعددية ظاهرة وحركية منتظمة. وقد أضفى هذا التناوب في الألوان على أروقة بيت الصلاة<sup>١٢</sup> طابعاً جمالياً جذاباً ومتفرداً لم يكن

٩- أخذ العمود تسميات عدة، فهو: عمود في المشرق، سارية في المغرب، أسطوان أو أسطوانة على لسان بعض الكتاب، و(شعقة) في لبنان، وعمود في ليبيا (عرصه). انظر: جمعة أحمد قاجة، موسوعة فن العمارة الإسلامية، سوريا، دار المنتقى للطباعة والنشر، السفير، دار الحصاد، ٢٠٠٠، ص ٣٣١.

١٠- تنحصر أهمية العمود في وظيفتين: بنائية وجمالية؛ الأولى تفرضها ضرورات تقنية، تقتن أساساً بجانب القوة والصلابة، وهي من أهم خصائص العمود، والثانية تتعلق باعتبارات جمالية. فالأعمدة الرخامية الأسطوانية الشكل المثبتة بانتظام على طول أروقة بيت الصلاة، تفسح مجالاً أرحب لوضوح الرؤية وجمالية المكان.

١١- المقري، نفع الطيب، م.س، ج١، ص ٥٤٩.

١٢- في عهد عبد الرحمن الداخل وبعد الانتهاء من أشغال البناء الأساسية، بلغ مجموع أروقة بيت الصلاة أحد عشر رواقاً (وفي رواية أخرى تسعة أروقة). وفي عهد عبد الرحمن الثاني جرى مد أروقة بيت الصلاة في اتجاه الجنوب، حتى تتسع لاستقبال أفواج جديدة من المصلين. وكذلك في عهد الحكم الثاني (المستنصر بالله) انطلقت أشغال توسعة جديدة، انتهت بمد أروقة بيت الصلاة في نفس اتجاه التوسعة السابقة. وآخر توسعة هامة للمسجد القرطبي انطلقت أشغالها زمن الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر، امتدت لأول مرة على طول الجهة الشرقية لبيت الصلاة، انتهت بإضافة ثمانية أروقة من هذه الجهة، لأن زيادة الحكم الثاني استنفذت تقريباً مجمل المساحة المطلقة على ضفة النهر.

له نظير في أي بناء سابق (الشكل ٤). وعلى نحو مغاير، تقوم في محيط المحراب عقود مفصصة متقاطعة في ارتقائها إلى مستوى قريب من السقف، حيث تتكامل وحداتها البنائية مع تعقيدات الشكل الهندسي لنظام القباب ذات العروق المتقاطعة.

وهكذا، فقد نجح عرفاء البناء من خلال الإهداء إلى فكرة العقود المزدوجة<sup>١٣</sup> في رفع سقف بيت الصلاة إلى ارتفاع مضاعف، إلى حدود تسعة أمتار من أرضية المسجد إلى سقفه الخشبي (المصنوع من خشب الأرز)، ورفع السقف إلى هذا الحد يعد إنجازاً موقفاً ومميزاً من الناحيتين التقنية والجمالية، مما سمح عملياً بتوسيع زاوية وضوح الرؤية من مواقع مختلفة عبر أرجاء بيت الصلاة الفسيحة.

### ٢.٢.٢- العقود المدببة، المفصصة والمتقاطعة:

لقد استخدم العقد المدبب على نطاق محدود جداً أثناء التوسعة ما قبل الأخيرة، عند المدخل المؤدي إلى التربيعة المجاورتين للبلطات الثلاثة الرئيسية القريبة من موقع المحراب، حيث استخدم الأجر كمادة أساسية في بنائه. على مستوى هذا العقد تظهر مجموعة من الضفائر، وهي عبارة عن أنصاف أقواس مقرة تحيط ببطنه على نحو منتظم (الشكل ٥).

وخلال نفس التوسعة (ما قبل الأخيرة) استخدم لأول مرة نظام العقود المفصصة والمتقاطعة، وقد تراوح عدد فصوص هذا الصنف من العقود في الغالب بين ثلاثة وخمسة فصوص، نذكر من بينها على سبيل المثال تلك المشيدة فوق قوس المحراب، وأيضاً داخل تجويفه وهي عقود ثلاثية الفصوص، كما تجدر الإشارة كذلك إلى عقود زوايا القبة الرئيسية وهي عقود خماسية الفصوص، وعلى نحو مختلف استخدمت في محيط صالة المحراب عقود مفصصة متقاطعة (الشكل ٦)، وفي الجزء العلوي من مدخل بلاطة المحراب شيد عقد زخرفي مسنن مكون من ثلاثة عشر فصاً غير بارز بشكل كاف (الشكل ٧). ويبدو أن عنصر العقد بأصنافه المستخدمة كان محبباً إلى رجال الفن في الأندلس، لذلك استعمل بكثافة في محيط المحراب. الملفت أكثر على مستوى صالة المحراب استخدام عقود مفصصة متعامدة، وهذه الأخيرة ظهرت لأول مرة في العمارة الأندلسية في القرن العاشر الميلادي خلال توسعة الحكم الثاني.

---

وبعد التوسعة الأخيرة، بلغ مجموع أروقة بيت الصلاة تسعة عشر رواقاً، وهذا ما أثر بشكل ملحوظ على تعادل وتمائل أجزاء المسجد، حيث أصبح المحراب أقرب إلى الجدار الغربي منه إلى الجدار الشرقي على بعد خمسة أروقة، ومن الجهة المقابلة (إلى الجدار الشرقي) على بعد ثلاثة عشر رواقاً، وبإضافة الرواق المفضي رأساً إلى المحراب تحصى في المجموع تسعة عشر رواقاً.

١٣- لقد حاول كثير من دارسي فن العمارة الإسلامية تأصيل نظام العقود المزدوجة. في هذا الصدد ذهب بعض المستشرقين أمثال: جورج مارسيه وهنري تيراس، إلى ربط فكرة العقود المزدوجة المتراكبة بعقود قناة ميريدا الرومانية في سقوبية (Segovia)، وهي من آثار العمارة الرومانية في إسبانيا. انظر: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧١م، ج ١، ص ٣٢٠.

## ٣.٢- القباب:

خلال التوسعة ما قبل الأخيرة، شيدت لأول مرة قباب ذات عروق متقاطعة، وتوجد القبة الرئيسة فوق البلاطة المحورية وسط قبتين فوق البلاطتين المحاذيتين لها (الأشكال ٨ و ٩ و ١٠)، وقد كسيت قبة المحراب عن آخرها بزخارف ملساء وألوان زاهية، وكل قبة من هذه القباب المتجاورة تقوم على قاعدة مربعة الشكل (الشكل ١١)، باستثناء القبة الرابعة الواقعة عند نهاية الرواق الأكبر، والتي تقوم على قاعدة مستطيلة الشكل (الشكل ١٢). على الرغم من بعض الاختلافات الجزئية بين هذه القباب، إلا أنها تستجيب لتصميم هندسي موحد (قباب ذات عروق متقاطعة).

تظهر على مستوى رقاب هذه القباب نوافذ، وهي عبارة عن فتحات تتوزع على مسافات متساوية فيما بينها، كما تبدو هذه القباب أكثر انتظاماً من الداخل وكأنها تُحف فنية متكاملة بلا أجزاء (أو غير قابلة للتفكيك)، أما مظهرها الخارجي فلا يوحي بحقيقة باطنها، فهو عبارة عن كتل هرمية الشكل مغطاة بالقرميد.

## ٤.٢- المحراب:

لقد حظي محراب جامع قرطبة خلال التوسعة ما قبل الأخيرة باهتمام خاص من قبل عرفاء البناء، حتى انفرد بميزات وخصائص هندسية وزخرفية غاية في الإتقان والجمال. في هذا الصدد يذكر المراكشي أنه لما «كملت القبة المبتناة على المحراب في الزيادة بالمسجد (وذلك في جمادى الآخرة منها) شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد الجامع، وكان ملك الروم بعث بها إلى الخليفة الحكم، وكان الحكم قد كتب له في ذلك وأمره بتوجيه صانعها إليه (...) فرجع وفد الحكم بالصانع ومعه من الفسيفساء ثلاثمائة وعشرون قنطاراً بعث بها ملك الروم هدية، فأمر الحكم بإنزال الصانع والتوسيع عليه، ورتب معه جملة من مماليكه لتعلم الصناعة، فوضعوا أيديهم معه في الفسيفساء المجلوبة وصاروا يعملون معه، فأبدعوا وأربوا عليه، واستمروا بعد ذلك منفردين دون الصانع القادم، إذ صدر راجعاً عند الاستغناء عنه، بعد أن أجزل له المستنصر الصلة والكسوة، وتداعى إلى هذه البنية كل صانع حاذق من أقطار الأرض»<sup>١٤</sup>. وهذه الفسيفساء تتخللها كتابات كوفية، والتي تغطي كذلك واجهتي باب السباط<sup>١٥</sup> (الشكل ١٣) وباب بيت المال (الشكل ١٤)، وقد رُسمت في أشرطة تحيط بها زخارف نباتية محورة عن الطبيعة.

١٤- المراكشي، البيان...، م.س، ج٢، ص ٢٣٧ و ٢٣٨.

١٥- والسباط هو ممر مسقوف أو رواق كان يصل القصر المجاور بالمسجد الجامع، ويعتبر الأمير عبد الله بن محمد أول من شيد ممرًا خاصًا يصل بين القصر والجامع، حتى يتسنى له ولوج ومغادرة مقصورة بيت الصلاة دون أن يلمحه أحد في مجيئه وانصرافه. ثم لاحقًا، وعلى إثر انطلاق أشغال التوسعة ما قبل الأخيرة (في عهد الحكم المستنصر) هُدم هذا السباط، و عوض بأخر جديد من الجهة الغربية عند زاوية انعطاف جدار القبة، و«يلغ عرض



تبدو واجهة المحراب الجديد وكأنها قطعة واحدة بلا أجزاء، وقد كسيت بزخارف نباتية وكتابية ذات قيمة فنية وجمالية عالية. في الجزء العلوي من مدخل حجرة المحراب تظهر سبعة عقود ثلاثية الفصوص مزججة دقيقة التكوين والزخرفة (الشكل ١٥)، حيث يغلب اللون الأزرق على التكوين كله، ثم يليه اللون الذهبي ثم اللون الأحمر. ومدخل حجرة المحراب عبارة عن عقد حدوة ضيق يرتكز على عمودين متوسطا القامة من الجهتين (الشكل ١٦)، وقد أتحت واجهته بزخارف نباتية على شكل أغصان وأوراق شديدة الرقة، حتى الأجزاء السفلى من واجهة المحراب كسيت بألواح من الرخام الأبيض وقد نقشت عليها زخارف نباتية (الشكل ١٧).

### خاتمة:

من زاوية تاريخية، يمكن القول إن بنيان المسجد الجامع على امتداد مساحته الواسعة، إنما يختزل مخاض دولة بأسرها، نقصد هنا الدولة الأموية في الأندلس (بقسميها الإمارة والخلافة). وقد شارك في إبداع جمالية هذه المعلمة الدينية سبعة أجيال من عرفاء البناء، منذ عهد الأمير الداخل إلى زمن الحاجب المنصور بن أبي عامر. وفي هذا العهد الأخير أخذ الجامع صورته النهائية.

يبدو جلياً أن عرفاء البناء في الأندلس قد وفقوا إلى حد بعيد في إضفاء طابع هندسي مميز على أجزاء ووحدات عمارة المسجد الجامع، وقد تداخلت في سياق بنيان هذه المعلمة الدينية تقاليد بنائية محلية، وأخرى دخيلة ثم مبتكرة على درجة من الجدة والإتقان، وفق أسلوب يمزج ببراعة بين مظاهر الصلابة والمرونة، الوحدة والتنوع، الوضوح والامتداد.

ومن مظاهر الجدة المميزة لعمارة المسجد الجامع بقرطبة: نظام العقود المزدوجة، نظام العقود المفصصة والمتشابكة ونظام القباب ذات العروق المتقاطعة. من هذه الزاوية، تبدو عمارة المسجد الجامع عبر واجهاتها الشامخة مفعمة بسحر التاريخ، ومُشبعة بعلامات التميز والتفوق، مما يعكس بالفعل مدى قيمة وأهمية هذا المعلم الديني في قلب مدينة قرطبة العريقة (منذ ١٩٨٤ أعلنت اليونسكو مسجد قرطبة تراثاً إنسانياً عالمياً).

---

السباط أربعة أمتار ونصف، ويمتد بطول جدار القبلة ويتألف من طابقين الأدنى تقطعه جوفه المحراب والأعلى يمتد من أول الجدار إلى آخره، وينقسم إلى خمس غرف متصلة على جانبي المحراب ويفصل بين هذه الغرف ثمانية أبواب». انظر: السيد عبد العزيز سالم، المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ٢٦.

## - نتائج البحث:

ما يمكن استخلاصه من زاوية عامة، في ضوء تجليات الهندسة المعمارية لمسجد قرطبة، أنها ذات قيمة محورية (مادية وتاريخية) يسري مداها إلى حدود واصلة بين ماضي وحاضر الأندلس، وهي تجليات واقعية بأبعاد مادية وجمالية، تنم عن حقيقة تاريخية عميقة، تتوارى جذورها إلى محطة مفصلية بعد الفتح الإسلامي للأندلس، حين شاطر مسلمو قرطبة النصارى كنيسهم القديمة.

وفي ضوء تجليات عمارة جامع قرطبة المادية والجمالية، تتنازل تفرجات إلى مستويات ومجالات مختلفة ومترابطة فيما بينها (دينية وسياسية واقتصادية...إلخ)، وهذا مرده في المقام الأول إلى طبيعة المناسبة التاريخية التي مهدت لبزوغ عهد جديد بالأندلس، وأيضاً لمكانة المسجد الجامع ودوره في إضفاء طابع العمارة الإسلامية على بنية النسيج العمراني لمدينة قرطبة، وهذا ينطبق كذلك على حواضر ومدن الأندلس التي أمكن للمسلمين دخولها وتشبيد مساجد على أرضها.

إلى جانب الوظيفة الدينية للمسجد الجامع، تتكامل أدوار وظيفية أخرى ذات صلة لا تقل أهمية عن الدور الأول، ومعلوم أن المساجد الجامعة في الأقطار الإسلامية كانت تحظى بأهمية في مستوى قيمتها الدينية وإشعاعها العلمي، ناهيك عن مكانتها البارزة وموقعها المحوري ضمن نسيج البنية الطبوغرافية التاريخية للمدن الإسلامية. والمسجد الجامع لم يخرج عن هذا التقليد العريق، حيث كانت تُدرس في رحابه علوم الدين واللغة، وقد تتلمذ في أروقة الجامع أعداداً كبيرة من طلاب العلم، وتخرجت منه نخب من الدارسين، منهم من شغل مناصب هامة في وظائف رفيعة بالأندلس.

من الواضح أن اهتمام حكام الدولة الأموية بعمارة المسجد الجامع بقرطبة، قد ساهم بشكل فعال في رفع قيمة هذه المعلمة الدينية من الناحيتين البنائية والجمالية، مما يفسر حجم المبالغ التي أنفقت بسخاء في الزيادات الهامة التي ألحقت على مراحل بعمارة الجامع، وهذا المعطى المادي في حد ذاته يُعدّ مؤشراً دالاً على انتعاش اقتصادي في الأندلس عصر الدولة الأموية (خاصة في منتصف القرن العاشر الميلادي).

يتضح من خلال ما سبق أن تاريخ عمارة جامع قرطبة حافل بإحالات وروابط أفقية وعمودية، لا ترتبط فقط بمجال فن العمارة، بل أيضاً بجوانب أخرى: سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية، والتي تعكس مجتمعة حقيقة تاريخية تبلورت في حضن تجربة متميزة على أرض الأندلس، وإن كانت تجربة واسعة مرت بمراحل ومحطات لها ما قبلها وما بعدها.

ومن أجل توسيع حيز التعاطي مع رصيد تاريخ الأندلس في دائرة المشترك بين ضفتي المتوسط، تبقى الحاجة ملحة إلى دعم مراكز البحث المتخصصة في تاريخ الأندلس وتوسيع آفاقها، وذلك من أجل بلورة رؤية موضوعية تكون منسجمة ومتصالحة مع روح التاريخ ومستجدات العصر.

## ملحق الأشكال



المسجد الجامع بقرطبة<sup>١٦</sup>.



الشكل (١):

بوابة الغفران المحاذية لمئذنة الجامع<sup>١٧</sup>.

16 -Manuel Nieto Cumplido, «La Mosquée-Cathédrale de Cordoue». Escudo de oro, Madrid. 2008, p.2.

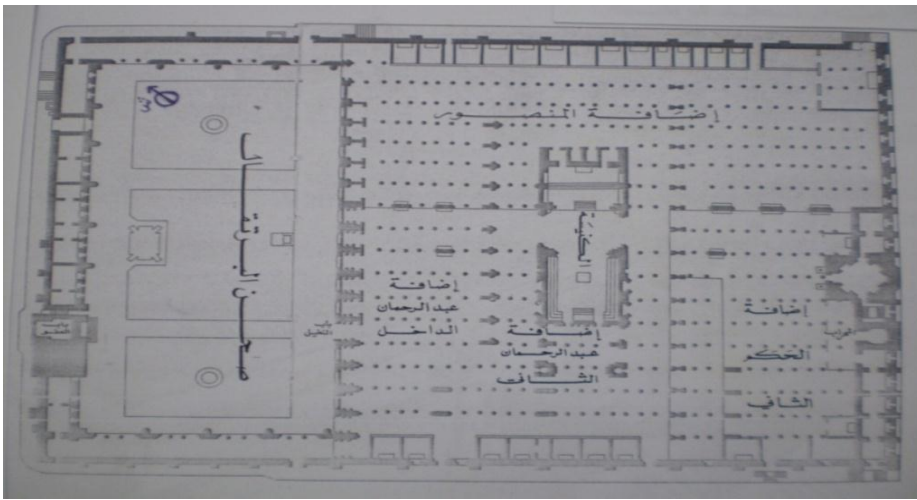
١٧- التقطت الصورة من الموقع.



الشكل (٢):

باب النخيل

المدخل الرئيسي لبيت الصلاة المطل على ساحة الحمضيات<sup>١٨</sup>.



الشكل (٣): المخطط النهائي لجامع قرطبة بعد تحويله إلى كاتدرائية<sup>١٩</sup>.



الشكل (٤):

جانب من داخل بيت الصلاة

الفسيجة<sup>٢٠</sup>.

18 -Manuel Nieto Cumplido, «La Mosquée ...» op. cit., p.38.

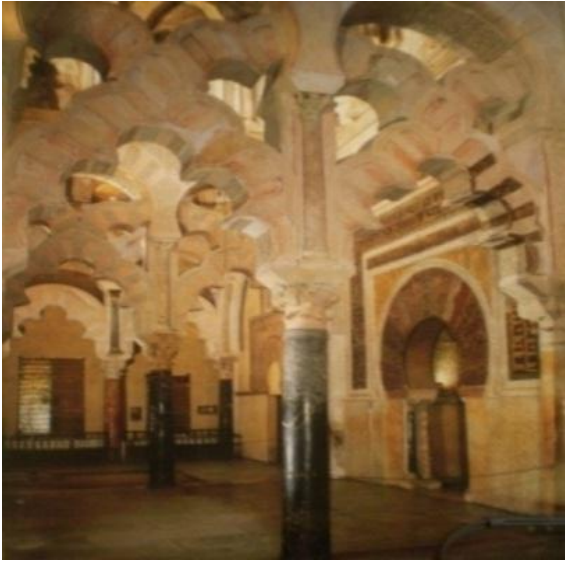
١٩- عبد العزيز الدولاتي، مسجد قرطبة وقصر الحمراء، تونس، دار الجنوب للنشر، ١٩٧٧، ص ٣٦.

٢٠- محرك البحث (Google)



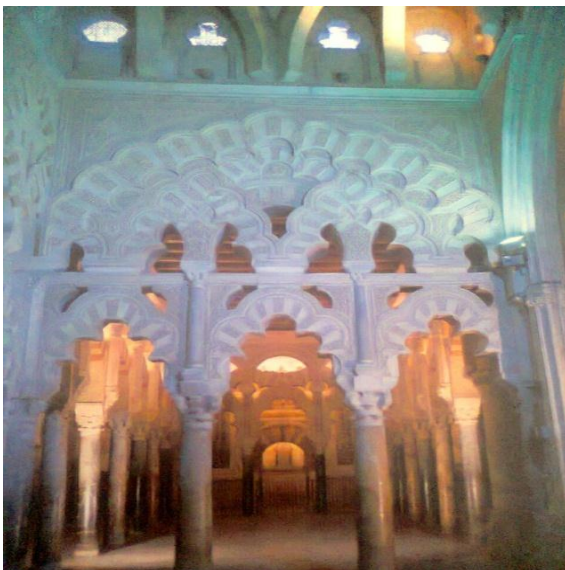
الشكل (٥):

عقد مدبب شيد أثناء توسعة الحكم الثاني<sup>٢١</sup>.



الشكل (٦):

تقاطع عقود مفصصة بشكل عمودي  
في محيط المحراب<sup>٢٢</sup>.



الشكل (٧):

نظام العقود المفصصة المتشابكة  
(من توسعة الحكم الثاني)<sup>٢٣</sup>.

21 -Manuel Nieto Cumplido, «La Mosquée ...» op. cit., p.24.

22 -Ibid, p.33.

23 -Ibid, p.24.



الشكل (٨):

قبة المحراب الرئيسة وسط المقصورة<sup>٢٤</sup>.



الشكل (٩):

قبة فوق التريعة المجاورة لقبة المحراب<sup>٢٥</sup>.



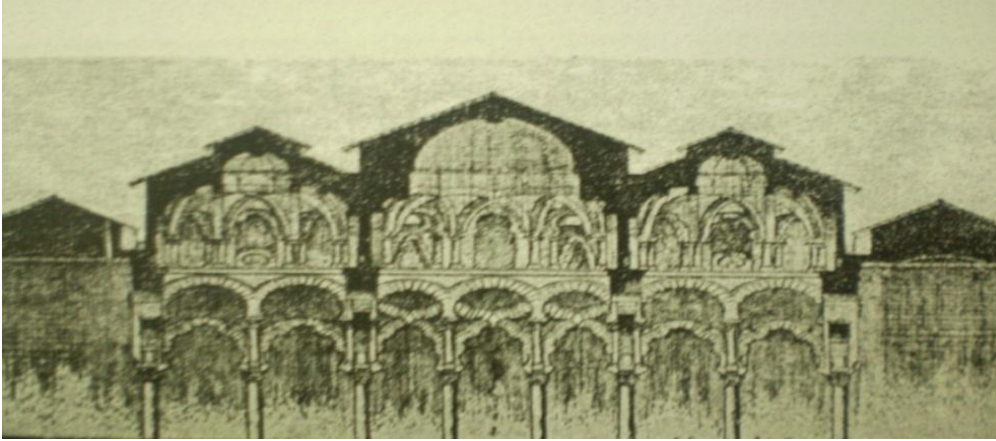
الشكل (١٠):

قبة فوق التريعة المجاورة لقبة المحراب<sup>٢٦</sup>.

24 -Ibid, p.١٥.

25 -Ibid, p.32.

26 -Ibid, p.30-31.



الشكل (١١): مقطع مستعرض يظهر القباب الثلاث المتجاورة<sup>٢٧</sup>.



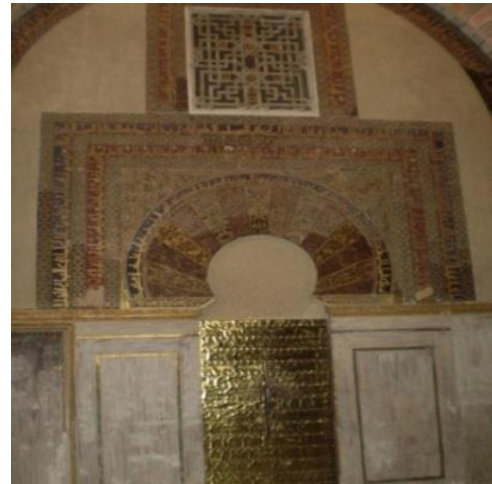
الشكل (١٢):

قبة شيدت عند مدخل توسعة الحُكم الثاني  
فوق قاعدة مستطيلة الشكل<sup>٢٨</sup>.



الشكل (١٤)

واجهه باب بيت المال (على يسار مدخل حجرة المحراب)<sup>٣٠</sup>.



الشكل (١٣)

واجهه باب الساباط (على يمين مدخل حجرة المحراب)<sup>٢٩</sup>.

٢٧- ليوبولدو توريس بلباس، تاريخ إسبانيا الإسلامية، من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، ترجمة علي عبد الرؤوف البمي، علي إبراهيم المنوفي، السيد عبد الظاهر عبد الله، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ج٢، ٢٠٠٢، ص ٥٦٨.  
٢٨- التقطت الصورة من الموقع.





